

لِإِسْتِفَامَةٍ فِي الْإِحْسَانِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ فِي الْإِسْلَامِ

الاستاذ / صلاح أحمد الطنوبي

الدَّعْوَةُ إِلَى حُسْنِ الْأَخْلَاقِ هدفٌ مهمٌ مِنْ أهدافِ الدعوةِ الإسلاميَّةِ ، ركَّزَ عليها القرآنُ الكريمُ ، وأَيَّدَها الرُّسُولُ الكريمُ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) في أقوالِهِ وأفعاله ، فأشار إلى هذا الهدف بقوله : « إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » رواه أحمد ومالك عن أبي هريرة .

فكان رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) خَيْرَ قُدْوَةٍ تُتَّبَعُ ، وَخَيْرَ هَدْيٍ يُهْتَدَى بِهِ .

قَالَ اللهُ جَلَّ ثَنَاهُ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١)

وكان النَّبِيُّ الْعَظِيمُ (ﷺ) كما وصفه رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلالِ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) .

وكما وصفه أُنْسٌ (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) بقوله : « كَانَ رَسُولُ اللهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا » (٣)

(١) سورة الأحزاب الآية [٢١]

(٢) سورة القلم الآية [٤]

(٣) رواه البخاري ومسلم .

* ولقد أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ، وَقَرَّنَهَا بِصِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ مِنْهَا قَوْلُ الْحَقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَكَمًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِالْغَوْرِ مَرْؤًا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْفِقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا خَلِيدِينَ فِيهَا حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١﴾

وقول الله تبارك وتعالى عَلَى لِسَانِ لِقْمَانَ وَهُوَ يَعِظُ ابْنَهُ ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَامْرُءًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿٢﴾

(١) سورة الفرقان الآيات من [٦٣ - ٧٦]

(٢) سورة لقمان ، الآيات من [١٧ - ١٩]

* والرسول الكريم محمد ﷺ دَعَا دَعْوَةً صَرِيحَةً وَّاضِحَةً إِلَى تَحْسِينِ الْأَخْلَاقِ ، وَالتَّحَلِّيِ بِأَفْضَلِهَا ، وَتَجَنُّبِ مَا كَانَ سَيِّئًا مِنْهَا وَالْإِبْتِعَادَ عَنْ كُلِّ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ ..

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا . وَإِنْ مِنْ أَبْغَضِكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرَاوُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيِّهُونَ ! قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَدْ عَلِمْنَا الثَّرَاوُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، فَمَا الْمُتَفَيِّهُونَ ؟ قَالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ » رواه الترمذي وقال حديث حسن .

الثَّرَاوُونَ : جَمْعُ ثَرَّارٍ ، وَهُوَ الشَّخْصُ الْمَكْتَرُ فِي الْكَلَامِ تَكَلُّفًا .
الْمُتَشَدِّقُونَ : جَمْعُ مُتَشَدِّقٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَتَطَاوَلُ عَلَى النَّاسِ بِكَلَامِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِمَلءِ فِيهِ مُتَفَاصِحًا .

الْمُتَفَيِّهُونَ : جَمْعُ مُتَفَيِّهٍ ، وَأَصْلُهُ مِنَ الْفَهْقِ وَهُوَ الْإِمْتَلَاءُ وَمَعْنَاهُ هُنَا الْمَتَوَسَّعُونَ فِي كَلَامِهِمْ مَعَ تَكَبُّرٍ وَإِظْهَارٍ لِلْفَضِيلَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ .

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) قَالَ : « مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْفَاجِشَ الْبَذِيءَ . رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح
وقال رسول الله ﷺ : « أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ » . أخرجه الترمذي

ولقد أمرنا رسول الله ﷺ بِأَنْ نُخَالِقَ النَّاسَ بِخُلُقِ حَسَنٍ ، فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ : « اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ

حَسَنٍ . رواه الترمذي وقال حديث حسن

وَعَنْ جَابِر «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قَالَ : قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) :
«إِنَّ أَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا ، الْمُوْطَّئُونَ أَكْنَافًا ، الَّذِينَ
يَأْلِفُونَ وَيُؤْلَفُونَ» رواه الطبراني .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَنْ
أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ قَالَ : «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ» ، وَسُئِلَ عَنْ
أَكْثَرِ مَا يَدْخُلُ النَّاسَ النَّارَ فَقَالَ : «الْفَمُ وَالْفَرْجُ» رواه الترمذي وقال حديث
حسن صحيح .

فيا السعادة المتخلفين بأخلاق الإسلام ، وبالهناءة المقتدين بخير الأنام
محمد بن عبد الله « عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام » .

خُلُقُ الْإِسْتِقَامَةِ فِي الْإِسْلَام :

قَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا
تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي
كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ
فِيهَا مَا دَشْتُمُوهَا أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَّلْنَا مِنْ عَقُورِ رَحِيمٍ ﴿١﴾ .

وَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا
خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً لِمَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ .

(١) سورة فصلت من الآيات [٣٢ - ٣٣]

(٢) سورة الأحقاف ، الآيتان [١٣ ، ١٤]

وَقَالَ رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ : ﴿ وَالْوَّاسْتَقْمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ
مَاءً غَدَقًا ﴾ (١)

وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ : قُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، قَالَ :
قُلْ : (آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمَ) رواه مسلم .

الاستقامة كلمة جامعة للخير ، ولجميع السجایا الحميدة ، والخلال
الكريمة ، وأسمى ما يطلبه الإنسان في هذه الحياة أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ مستقيم .
وكلمة «الاستقامة» تُفِيدُ - كما في لسان العرب لابن منظور - معنى
الاعتدال والاستواء يُقَالُ : استقام له الأمر ، أي اعتدل ، ومن ذلك ماورد
في السُّنَّةِ بِشَأْنِ الاصطفاف في الصَّلَاةِ ، ماروى عن أنسٍ «رضي الله عنه»
قال : قال رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) :

«سَوُّوا صُفُوفَكُمْ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمَامِ الصَّلَاةِ» متفق عليه .
وفي رواية للبخاري : «فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ» . أي
جعلها سليمة معتدلة .

وكلمة «الاستقامة» مشتقة من مادة «القيام» وفي هذه المادة معنى
الملازمة والمحافظة والثبات ، وَعَلَى هذا جاء قول الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :
﴿ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ﴾ (٢) أي ملازما محافظا .

وقد تأتي المادة بمعنى الإصلاح والنهوض بالتبعات ، ومن ذلك قول الله
تبارك وتعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (٣)

(١) سورة الجن ، الآية [١٦]

(٢) سورة آل عمران ، من الآية ، [٧٥]

(٣) سورة النساء ، الآية [٣٤] .

ومن هذا نفهم أن الاستقامة في الإسلام هي الإقامة على دين الله ، والدوام على هدى الله عز وجل ، والاستمرار في التقيد بقيوده ، والوقوف عند حدوده ، والاستجابة لأوامره ، والانتفاء عن محارمه ..
إن جميع الأنبياء (صلوات الله عليهم) كانت رسالاتهم والهدف منها أن يستقيم الناس ، وتستقيم بهم أحوالهم ، وتستقيم بهم دنيائهم ، وتستقيم بهم أمور آخرتهم ...

قال الله تعالى لنبية محمد ﷺ : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

فأمر الله جل جلاله نبيه محمداً ﷺ أن يستقيم ومن تاب معه على جادة الحق ، غير عادلين عنها ، وألا يجاوزوا ما أمروا به ، فذلك هو الطغيان .

والمسلم يجب أن يكون ملتزماً بمنهاج الاستقامة ، وما يتطلبه هذا منهاج من آداب وأخلاق حسنة .

قال الله جل جلاله : ﴿ وَأَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) .

أي أن هذا صراط الله تعالى وطريقه الذي جعله منهجاً للسلوك - مستقيماً لاعوج فيه .

وأن على الناس أن يتبعوا الطريق السوي ، وأنهم إذا اتبعوه ، وساروا

(١) سورة هود ، الآية [١١٢]

(٢) سورة الأنعام ، الآية [١٥٣]

عليه أَمِنُوا مِنَ الزَّيْغِ والضَّلَالِ فِي الدُّنْيَا ، وسعدوا برضوانِ الله تعالى ونعيمه في الآخرة .

وَإِذَا انْحَرَفُوا عَنْ صِرَاطِ اللَّهِ ، واتخذوا طرقاً أخرى ابتدعوها مِنْ تَلَقَاءِ أَنْفُسِهِمْ ، تَفَرَّقُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وحادوا عَنْهُ ، واستحقُّوا الضَّلَالِ ، وتعرَّضوا للنكالِ بإِعْرَاضِهِمْ عَنْ هِدَايَةِ اللَّهِ تعالى .

وَأَنَّ هَذِهِ وصايا الله العليِّ القدير لعباده ؛ لتحصل لَهُمْ ملكة التَّقْوَى .

وقد جاء عن الرَّسُولِ الكريمِ محمد بن عبد الله ﷺ أَنَّهُ خَطَّ خَطًّا مُسْتَقِيمًا ، وَخَطَّ عَنْ يَمِينِهِ خَطُوطًا ، وَعَنْ شِمَالِهِ خَطُوطًا . ثُمَّ قَالَ مُشِيرًا إِلَى الْخَطِّ الْمُسْتَقِيمِ : هَذِهِ سَبِيلُ اللَّهِ .. وَقَالَ مُشِيرًا إِلَى الْخَطُوطِ الَّتِي عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ : هَذِهِ سُبُلٌ .. عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ .. ثُمَّ قرَأَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ قَوْلَ الْحَقِّ تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) .

جَعَلَ اللَّهُ تعالى « الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » مطلباً للمؤمنين ، يَرْجُونَ رَبَّهُمْ تحقيقه لَهُمْ ، فيدعونه بذلك في كُلِّ رَكْعَةٍ مِنْ صَلَوَاتِهِمْ حينما يقولون : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » (٢)

وَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ محتاجاً - دُونَ شَكِّ - إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّهُ عَلَى طَرِيقِ الاستقامة ، وإلى رائدٍ يروده عَلَى ذَلِكَ الطَّرِيقِ ، فَإِنَّ خَيْرَ دَلِيلٍ وَأَصْدَقَ رَائِدٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ هُوَ كِتَابُ اللَّهِ تعالى ..

(١) سبقت .

(٢) سورة الفاتحة ، الآية [٦]

قال جَلَّ جَلَّاهُ : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

فالآية تخبرنا - وهي قولُ أَصْدَقِ الْقَائِلِينَ - بَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى يَهْدِي إِلَى الْحَالَةِ الَّتِي هِيَ أَقْوَمُ الْحَالَاتِ ، وَإِلَى الطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَعْدَلُ الطَّرَقِ ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَشَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانُ بِرَسُولِ اللَّهِ ، وَالْإِيمَانُ بِكِتَابِهِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَالْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ ، وَالْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ . وَقَدْ أَكَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ هَذَا الْمَعْنَى حِينَ قَالَ عَنْ كِتَابِهِ :

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ (٢) .

إِنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْتِقَامَةَ هُمَا دَعَامَتَا الْإِسْلَامِ ، وَهُمَا مَصْدَرُ كُلِّ خَيْرٍ ، فَالْإِيمَانُ بِالْمَوْلَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى نُورٌ فِي الْقَلْبِ ، وَحِكْمَةٌ فِي النَّفْسِ ، وَعِفَّةٌ لِلْجَوَارِحِ ، وَالْإِسْتِقَامَةُ هِيَ مَظْهَرُ الْإِيمَانِ وَمِيزَانُهُ وَنَتِيجَتُهُ ، فَلَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا يَسْتَقِيمُ فِي حَيَاتِهِ وَسُلُوكِهِ ، وَلَا اسْتِقَامَةَ لِمَنْ لَا إِيمَانَ فِي قَلْبِهِ .

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، قَالَ : قُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِيمَ » رواه مسلم .

خُلُقُ الْإِحْسَانِ فِي الْإِسْلَامِ :

الْإِحْسَانُ فِي اللُّغَةِ مَعْنَاهُ الْإِتْقَانُ .. وَهُوَ الْإِخْلَاصُ ، وَصَدَقَ الْمُرَاقِبَةُ ، وَهُوَ التَّطَوُّعُ بِالْفَضْلِ بَعْدَ مَرَاعَاةِ الْعَدْلِ ، وَهُوَ الصَّنْعُ الْجَمِيلُ وَالتَّصَرُّفُ الْحَمِيدُ .

(١) سورة الإسراء ، الآية [٩]

(٢) سورة التَّكْوِيْدِ ، الآية [٢٧] ، [٢٨]

وقد جاءت مادة «الإحسان» ومتعلقاتها في القرآن الكريم فيما يقرب من مائة وتسعين موضعاً ، وهذه العناية التي تَظْهَرُ في كتاب الله تعالى بأمر الإحسان ، وتمثّل في الحديث عنه عشرات المرات تدلّ على المكانة السّامية التي تحتلّها فضيلة الإحسان ، ولا عجب في ذلك فعلماء الأخلاق يقولون : «إنّ الإحسان خلُقَ جامع لجميع أبواب الحقائق ، وفيه لبّ الإيمان وروحه» .

وقد عَرَفَ الرّسول الكريمُ محمدٌ ﷺ الإحسان بقوله : «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنّك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» رواه مسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه -

فالمحسنُ هو المراقبُ لربه جَلَّ جَلالُه ، المخلصُ في عمله ، المتقن لصنعتِه ، الباذل للمعروف والخير ؛ لأنّ الإنسان إذا عبد الله جَلَّ ثناءه في الدُّنيا على وَجْهِ الحضور والمراقبة ، كأنّه ينظرُ إلى الله عزَّ وجلَّ حال عبادته ، مستحضراً لعظمة الله تعالى ومراقبته له غرست في قلبه الحُشية والهيبة والتَّعظيم والخوف ؛ وذلك يوجبُ عَلَيْهِ التَّصَحُّح في العبادة ، وبذل الجهد في تحسينها وإكمالها وإتمامها على الوجه الذي ينبغي أن تكونَ عَلَيْهِ .

وبين القرآن الكريم أن الإحسان يجبُ أن يكونَ الواجبَ الطَّبيعي للإنسان ، وأنَّ الله كما أحسن إليه بنعمه عَلَيْهِ أن يحسن بهذه النعم إلى الخلق ..

قال ربُّ العِزَّة والجلال : ﴿ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (١)

وبين القرآن المجيد أن الإحسان تعودُ منفعتُه إلى المحسن ..

قال الله جلّ ثناؤه : ﴿ إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾^(١) .

وأمر الله تعالى بالإحسان .. قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾^(٢)

كما أنَّ القرآن الكريم رفع منزلة الإحسان وقرنه بالإخلاص لله ، ووصفهما بأنَّهما أرفع مايتحلّى به الإنسان المتدين .. قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾^(٣) .

وقال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾^(٤)

وَمِنْ صفات المحسنين في القرآن الكريم قول الحق جلّ جلاله :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَاءٍ انْتَهُم رُبُّهُمْ إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَلَا لَا سَحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾^(٥)

(١) سورة الإسراء ، الآية [٧]

(٢) سورة النحل ، الآية [٩٦]

(٣) سورة النساء ، الآية [١٢٥]

(٤) سورة لقمان ، الآية [٢٢]

(٥) سورة الذاريات ، الآيات [١٥ - ١٩]

والجهاد في سبيل الله تعالى ، هو من الإحسان .. قال رَبُّ الْعِزَّةِ
وَالْجَلال : ﴿ وَالَّذِينَ جَهِدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

وَاتَّباع ما جاء به النَّبِيُّ الْعَظِيمُ مُحَمَّدٌ ﷺ هو مِنَ الْإِحسان قال
تعالى : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۖ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ
مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢)
وَالْعَفْوُ مِنَ الْإِحسان .. قال تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٣) .

وَالصَّبْرُ مِنَ الْإِحسان .. قال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

ورعاية حقوق الوالدين والأقربين ، والجيران والأصدقاء ، والفقراء ،
والخدم ، من أعظم ضروب الإحسان ، وقد قرنها الله تبارك وتعالى بعبادته ؛
ليلفت النظر إلى هذه الرعاية ، وليؤكد هذه الحقوق .. قال الله جَلَّ
جلاله : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (٥)

(١) سورة العنكبوت ، الآية [٦٩]

(٢) سورة الزمر ، الآيتان [٣٣ ، ٣٤]

(٣) سورة المائدة الآية [١٣]

(٤) سورة هود الآية [١١٥]

(٥) سورة النساء ، الآية [٣٦]

ولقد حثَّ القرآن الكريم على طيب الكلام وحسنه في كثير من آياته ..

قال تبارك وتعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (١) .

وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٢) .

وقال جلَّ جلاله : ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٣)

ويطلب الإحسان في التَّحِيَّةِ بدليل قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِحِجَّةٍ فَحَيَّوْا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (٤)

والله تبارك وتعالى كتب الإحسان على كل شيء .. عن أبي يعلى شَدَّاد بن أوس «رضي الله عنه» عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ : « إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقَتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ ، وَلِيَحْدِ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلِيَرْخُ ذَبِيحَتَهُ » رواه مسلم .. فالإحسان يتناول كل شأن من الشؤون ، وينظم كل عمل .. قال الله تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ لِعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (٥)

هذا وبالله تعالى التَّوْفِيقُ ، والحمد لله تعالى على نعمة الإسلام ، وصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأُمَّتِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

صلاح أحمد الطنوبي

(١) سورة البقرة الآية [٨٣]

(٢) سورة فصلت ، الآية [٣٣]

(٣) سورة الإسراء ، الآية [٥٣]

(٤) سورة النساء الآية [٨٦]

(٥) سورة الزمر الآية [١٠] .